هيدغر والميتافيزيقا

أ. كرد محمد،

قسم الفلسفة،

المركز الجامعي لمعسكر.

تعد مسألة الميتافيزيقا من أهم المسائل التي اهتم بها هيدغر في نصوصه، وتجلى هذا الاهتمام إما على نحو مباشر و ذلك من خلال محاولة الإجابة على التساؤلات التالية:(ما الميتافيزيقا؟ وما الأساس الذي قامت عليه طوال تاريخها؟)، أو على نحو غير مباشر من خلال الاهتمام بمسائل يراها هيدغر مسالك يتوصل بها لتحليل القضايا المرتبطة بالميتافيزيقا مثل: الفكر، اللغة، الفن، الشعر...

إن لفظة "ميتافيزيقا" فيما يقول هيدغر، تدل على مجاوزة ما هو فيزيقى،" لفظة ميتافيزيقا مشتقة من الكلمة اليونانية τά μεταά τά φνσιχά، هذا العنوان الغريب تم تفسيره فيما بعد على أنه يشير إلى التساؤل الذي يتجاوز الموجود بما هو كذلك "μεταά معناها "بعد Après"،"فيما وراء Au-dessus". الميتافيزيقا، هي التساؤل الذي يتجاوز الموجود الذي عنه تسأل، لتسترده بما هو كذلك، وفي مجموعه، في تصور عقلي." ((Heidegger (m),1985: 63.)) ومن ثم فإن الميتافيزيقا تتضمن التجاوز أو المفارقة.

لم يقتصر هيدغر، إذن، على ما تشير إليه كلمة "الموجود" بل تعداها إلى البحث والتساؤل عن الذي يجعل من الموجود موجودا، من الإنسان إنسانا، فكشف بذلك عن الوجود être كأساس لكل ما هو موجود فعلاétant ، فما هي حقيقة الوجود؟ وما علاقة السؤال عن الوجود بالميتافيزيقا؟

يرى هيدغر أن الأساس الذي تستقر فيه الميتافييقا هو الوجود، وعليه يكون لزاما على كل بحث فلسفي أن يضع "سؤال الوجود"، "إن على كل سؤال بصدد الـ "وجود"، وحتى ذلك الذي يروم حقيقة الوجود، أن يقدم نفسه منذ البداية كسؤال ميتافزيقي." ((هيدغر (م)، 1999: 133.)) إلا أن الميتافيزيقا لم تضع في مسارها التاريخي هذا السؤال، بدءا بأفلاطون مرورا بديكارت وكانط وهيغل وصولا إلى نيتشه، وهذا لكونها لم تعنى إلا بالبحث في الموجود بما هو موجود، فإذا كان صحيحا أن الميتافيزيقا تدعي البحث في الوجود، إلا أنها تبحث من خلال ذلك في الموجود بما هو كذلك، في كليته ومجموعه، يقول هيدغر في محاضرته ((رسالة في النزعة الإنسانية)): "إن الميتافزيقا لا تكتفي فقط بعدم طرحها للسؤال بصدد حقيقة الوجود، بل تحول أكثر من ذلك دون طرحه من فرط استمرارها في نسيان الوجود." ((هيدغر (م)، 1999: 134.))

ولهذا السبب يؤكد هيدغر على ضرورة تجاوز الميتافيزيقا حتى يتسنى لنا تأسيسها.

أ- تأسيس الميتافيزيقا:

الوجود L'être هو إذن الأساس الذي تستقر فيه الميتافيزيقا، ففي محاضرة (العودة إلى أساس الميتافيزيقا) يقدم هيدغر الصورة البيانية التي استخدمها ديكارت والتي يقول فيها:" إن الفلسفة مثلها مثل شجرة، جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزيقا، و الفروع التي تتفرع من الجذع هي سائر العلوم الأخرى" ومن خلال هذه الصورة البيانية يتساءل هيدغر:

- ما طبيعة الأرض التي تجد فيها جذور شجرة الفلسفة مقرها؟
- ومن أي أساس تستمد الجذور – ومن خلالها تستمد الشجرة كلها – العصارة والقوة اللازمتين لنموها؟
- ما هو العنصر – المحجوب في الأرض و الأساس – الذي يدخل و يحيا في الجذور التي تدعم الشجرة و تنميها ؟
- أين تقوم الميتافيزيقا، منظورا إليها من أساسها؟
- ما أساس الميتافيزيقا على وجه الإطلاق؟(هيدغر، م. هيلدرلن، ب ت: 77)

إن الجواب الذي قدمه هيدغر عن كل هذه الأسئلة هو: الوجود، لقد مثل الوجود الأساس الذي تجد فيه جذور شجرة الفلسفة مقرها، إنه الأساس الذي تقوم عليه الميتافيزيقا بوجه عام.

يقول هيدغر للإجابة عن سؤال ما الفلسفة؟ في محاضرته التي ألقاها في مدينة (سيريزي لاسال) بفرنسا سنة 1955 بعنوان:(ما الفلسفة؟):"تتمثل في استجابتنا إلى ما تنحو الفلسفة في سيرها نحوه. و هذا الذي تنحو نحوه في سيرها هو وجود الموجود [...] إننا لا نجد الإجابة عن سؤال ما الفلسفة؟ في العبارات التاريخية، بل نجدها في التحاور مع ما قد سلم إلينا بوصفه وجود الموجود. " (هيدغر، م. هيلدرلن. ب ت:65.66)، ويقول أيضا للتأكيد على اعتبار الوجود أساس كل بحث فلسفي: "الفيلسوف هو الذي يحب الحكمة والذي يتواجد مع الحكمة، والتواجد تقريبا هو الإتحاد. و لكن ما هي الحكمة؟ هنا هيراقليط يترجم (سوفون) بالقول(إن الوجود في الموجود) (وأن كل الموجود في الوجود). الفيلسوف إذن هو هذا الذي يتواجد مع الموجود في الوجود. " (بنعبد العالي، ع. سبيلا، م، 1991، 49).

لكن على الرغم من أن الميتافيزيقا تجد أساسها في الوجود، إلا أنها لا تُعنى إلا بالبحث في الموجود بما هو موجود، إن جذور الشجرة و إن كانت تتغذى من الأرض التي بها ومن خلالها تنمو الشجرة و تتطور إلا أن هذه الجذور ذاتها تنسى نفسها من أجل

الشجرة، فهي لا تلتفت إلى الأرض، على الأقل من حيث أن نموها و بقائها مرتبط بهذا العنصر، والحال نفسه مع الميتافيزيقا، فهي وإن كانت تريد الكشف عن الوجود، هذا الذي يعد الأساس الذي تستقر فيه، إلا أنها تتمثل دائما الموجود بما هو موجود" هيدغر (م)، ب ت: 87.88؛ ففي محاضرة هيدغر (رسالة في النزعة الإنسانية) يقول ما نصه: " صحيح أن الميتافيزيقا تتمثل الموجود في وجوده، وبذلك فهي تفكر في وجود الموجود. ولكنها لا تفكر في الاختلاف بين الوجود والموجود.إن الميتافيزيقا لا تطرح السؤال بصدد حقيقة الوجود نفسه، لهذا السبب فهي لا تتساءل أبدا عن الكيفية التي من خلالها تنتمي ماهية الإنسان إلى حقيقة الوجود . فهذا السؤال ليس فقط لم تطرحه الميتافيزيقا بعد، وإنما ليس في متناولها كميتافيزيقا . "(هيدغر، م.ب ت: 123).

من خلا ل هذا النص يتبين أن الميتافيزيقا تقع في هذا الخلط بين الوجود L'être والموجود L'étant، وهي و إن كانت تبحث بالأساس في وجود الموجود، إلا أنها تجعل من الوجود الموجود في مجموعه و كليته، و بهذا ظلت الميتافيزيقا طيلة تاريخها من أفلاطون إلى نيتشه بمنظور هيدغر تتمثل الموجود دائما منظورا إليه من حيث هو موجود فقط، وتبقى بذلك حقيقة الوجود محجوبة، و لهذا فإن لفظ الميتافيزيقا يُرادف لفظ الفلسفة أو الأفلاطونية - الأفلاطونية نسبة إلى أفلاطون- في معناها القوي طبقاً لمذهب هيدغر. (طواع، م.1998:76).

بتأملنا للعلاقة بين الوجود و الموجود كما يتصورها هيدغر، نلاحظ التشابه القائم بينها وبين ما تصوره أفلاطون من علاقة بين "الأيدوسeidos, eidea" –أي المثال- وتجلياته المختلفة؛ فالوجود ليس هو الموجود، بل هو نور فحسب، إنه ما يمنح الموجود موجوديته - بمعنى الظهور المادي والحسي للكائن- ، أو بتعبير آخر نقول أن الموجود لا يمكنه الظهور والانكشاف إلا بفضل هذا النور (الوجود) الذي يجعله متجليا.

لكن و على خلاف ما أكده أفلاطون فإن الوجود يظل هو نفسه محجوبا داخل الموجود الذي يعمل على كشفه، فهو في كشفه و إنارته للموجود يكون متحجبا، يكشف ولا ينكشف . ومن الواضح هنا أن الخلاف بين أفلاطون و هيدغر يكمن في فهم كل منهما لمعنى الوجود، إن نظرة أفلاطون تؤول الوجود باعتباره "إيدوس" انطلاقاً منه تتحدد صور الأشياء وتتراءى، كما أصبح البحث في الوجود بحثاً في الماهية Essence، حيث اعتبرت الماهية حقل دلالي يتجاوز الزماني أو هي واقع أبدي يكون دوما هو هو، وارتبطت بذلك بمفهوم (الهَوية) أو (التطابق)، كما أن هيدغر في تحليله لمفهوم (الماهية) يشير إلى أنها أولا تُصنع و لا يُعثر عليها كواقعة؛ وثانيا لأن الحقيقة الماهية لا تثعل بأي علة ولا تطابق أي معطى بل هي نفسها العلة الأصلية لكل تعليل؛ و ثالثا لأن

حقيقة الوقائع تستمد أساسها من حقيقة الماهية. (المسكيني، ف. 2005: 390)؛ إلا أن رؤية هيدغر تختلف عن ذلك تماماً، حيث يعتبر الوجود L'être غير مفارق لا ينفصل عن الموجود، فهو ملازم له، ، لكن وبالرغم من هذه العلاقة الضرورية التي تجمع بين الوجود والموجود، إلا أنهما مختلفان كلياً عن بعضهما البعض.

تبعا لهذا التحديد يتبين الفرق بين الوجود و الموجود، وهذا ما يسميه هيدغر (الفرق الأنطولوجي)؛ فالموجود – في اصطلاح هيدغر- هو ما نتمكن من امتثاله وإحصائه، أي هو كل ما يخضع لدارسة العلم، إنه مجموع الموضوعات، أما الوجود فهو لا يخضع لامتثال العلماء وإحصائهم، إنه اللاموضوعي الذي لا يتأصل في عالم الحس؛ (رجب، م.ب ت: 53.) من هنا نجد هيدغر يؤكد أنه لا يمكن للميتافزيقا أن تقوم إلا إذا استطاعت أن تعي هذا الفرق الأنطولوجي بين الوجود والموجود.

لقد أهملت الميتافيزيقا الكلاسيكية بدءاً باللحظة الأفلاطونية - نسبة إلى أفلاطون- هذا الفرق، ليذهب هيدغر للتأكيد على أن أفلاطون هو المؤسس الحقيقي للميتافزيقا، حيث بين ذلك في محاضرته "نظرية أفلاطون عن الحقيقة" التي تناولت بالتحليل أسطورة الكهف، فمنذ أن فسر الوجود على أنه مثال (إيدوس Eidos)، أصبح التفكير في وجود الموجود تفكيرا ميتافيزيقيا.] إن (نسيان الوجود) من فعل الإغريق أنفسهم، و هو يُشكل وحدة مع أصل الفلسفة ذاته، أي مع أصلها الأغريقي، (Beaufret, J. 1971: 155) هذا لا يعني أن هذه الميتافيزيقا لا تتكلم عن الوجود، فهي تدعي أنها لا تهتم إلا به، لكنها في الحقيقة تخلط بين الوجود والموجود . إنها تسأل فقط حول الموجودية، أما الوجود فقد سقط في النسيان L'oublie، إنه غائب عن التفكير، والغياب لا يؤخذ بالنسبة لهيدغر إلاّ بوصفه تحجباً، وهذا ما يُشكل أساساً للميتافيزيقا الكلاسيكية.(Jean Lefranc. 1998:175).

لقد فرق هيدغر في كتابه "مقالات فى الفلسفة" بين نوعين من الأسئلة؛ السؤال الهادي [المرشد] والسؤال الأساسيEssentiel، الأول هو السؤال عن الموجود، والثاني هو السؤال عن الوجود. وإذا كانت الفلسفة أو الميتافيزيقا قد اهتمت بالسؤال عن الموجود، وهي بذلك تكون قد اهتدت إلى السؤال الهادي و تكون الفلسفة بالضرورة تبعاً لذلك علماً، (Henri Birault,2001:519) فإنه ينبغي وضع في مقابل ذلك السؤال الأساسي وهو السؤال عن الوجود، فمثل هذا السؤال قد وقع في النسيان وتعرض لضروب عديدة من الإهمال.

يتمثل الجانب الايجابي لفهم هذا الضرب من التفكير و الذي يسميه هيدغر بـ((التفكير المؤسس)) في إثارة السؤال عن معنى الوجود، أو هو بحث في الوجود بوصفه

عملية الحقيقة، ويطلق عليه هيدغر أيضا اسم ((تفكير الوجود))، وهو تفكير في الوجود، يتحدد به دون أن يتعداه، أي أنه يأتي من الوجود و يعود إلى الوجود؛ فالتفكير المؤسس هو، إذن، استجابة لنداء الوجود.

إن الميتافيزيقا، إذن، كما يراها هيدغر ظلت طوال تاريخها وعبر ما قاله الفلاسفة تهتم بالموجود فقط، رغم ادعائها تناول مسالة الوجود، إلا أن الأمر الذي يبقى مثيراً للاستغراب هو أن الميتافيزيقا التي أهملت البحث في أساسها لصالح الموجود لا يمكن أن تقوم بمهمتها إلا على ضوء الوجود؛"إن الميتافيزيقا بقدر ما تتمثل دائما الموجود بما هو موجود، فهي لا تفكر في الوجود ذاته، ذلك أن الفلسفة لا تركز إنتباهها على اساسها، إنها تترك دائما أساسها وتتركه بفضل الميتافيزيقا، لكنها مع ذلك لا تهرب أبدا من أساسها." (هيدغر، م. ب ت: 79)، ولهذا السبب فإن هيدغر تجاوز كل طروحات الميتافيزيقا وتأملاتها حينما تساءل عن الشيء الذي يجعل كل موجود موجودا، وأجاب: أنه الوجود . ثم تساءل من جديد: ما هو الوجود وما حقيقته؟

إذا عدنا إلى محاضرة هيدغر (رسالة في النزعة الإنسانية) فإننا سنجد تأكيدا على هذه الحقيقة و هي أن الوجود لا يمكن أن يكون مفارقا أو منفصلا عن الموجود، و هذا ما يجعل من الوجود بالمفهوم الهيدغري يختلف تماما عن الوجود في معناه الأفلاطوني، يقول هيدغر: "إن الوجود هو ما هو، هذا ما يتوجب على الفكر مستقبلا أن يتعلم سبر غوره وقوله . فالـ "وجود" ليس إله أو أساس العالم. إنه من بين كل الموجودات الأكثر بعدا عن الإنسان. ومع ذلك فهو الأقرب إليه من أي موجود آخر سواء كان صخرة أو حيوانا أو عملا فنيا أو آلة أو ملاكا أو الإله نفسه. الوجود هو الأقرب إليه. لكن الإنسان، رغم أن هذه القرابة هي أكثر ما هو موغل في التواري عنه، لا يتعلق دائما وقبل كل شيء سوى بالموجود فقط."(هيدغر، م. ب ت:128).

وهكذا يبدو الوجود ممتنعا على البرهنة بمعايير المنطق، إذ الوجود هو ما يوجد، وهو أظهر وأجلى من أن يُعرف، كما أن التفكير في الوجود لا يقوم على تفسيره تفسيرا سببيا، بالبحث عن علله ومعلولاته، أو باستنباط لوازمه و لواحقه، أو بترتيب أجناسه وفصوله، بل يقوم على تأويله تأويلا يُؤول إلى إيضاح معناه، وتحليل بناه، وتبيان أنماطه وأشكال ظهوره.

وعلى هذا الأساس يتبين أن هذا النور هو الأقرب إلى الإنسان ذلك أنه يعبر عن كينونة الأشياء فيجعل ما هو موجود موجودا فعلا، لكن في نفس الوقت يكون هو الأبعد بالنسبة للإنسان، لأن هذا الأخير قد تعود فقط على التعامل مع ما هو موجود؛ كما نستخلص من هذا النص أيضا رفض هيدغر رد هذا النور إلى أي شيء يكون

خارجا عن الموجود في ذاته، فلا اللّه ولا العقل المطلق و لا العالم يعد سببا أولا، فليس لشيء يُرى أو يكتنه من أمر الوجود، أن يكون علة أو معلولا . ليس المفارق والمتعالي Transcendantal والمثالي عللا للوجود، كما أنه ليست المحسوسات معلولات له (حرب، ع. 2000: 111). " لا يمكن أن يكون الوجود في نظر هيدغر غير هذا المجال أو الأفق المفتوح الذي يحتضن الموجود، ذلك أن الوجود هو قدر النور والانفتاح.

ويؤكد هيدغر أن الوجود هو بمثابة النور الذي يحتضن الموجود في مجموعه ويجعله مستنيرا، فهو عملية منيرة، مسلك للرؤية و التجلي " إن الميتافزيقا لا تعرف نور الوجود وانفتاحه إلا باعتباره ذلك النظر المتجه صوبنا من جانب ما هو حاضر في (التجلي) (آيديا = فكرة = مثال):[...] وهذا معناه أن حقيقة الوجود، من حيث هي ذلك النور والانفتاح نفسه، تظل متوارية عن الميتافزيقا. (هيدغر، م.ب ت: 128)

نستخلص أن أساس الميتافيزيقا هو البحث في الوجود، لكن عدم قدرة الميتافيزيقا وبسبب ماهيتها على البحث في مسألة الوجود La Question de l'être التي هي أساسها، جعل هيدغر يؤكد على ضرورة (قهر الميتافيزيقا)،"لا يعني القهر الهدم والتحطيم، وإنما يعني كشف الإمكانات المطمورة والصالحة في تاريخ الميتافيزيقا من أجل إدراك مسار الفكر الغربي من خلال جملة الأفكار الأساسية التي تحكمت في تاريخه، كما يعني التفكيك و التصفية، والتنحية جانبا للتقريرات التاريخية البحتة عن تاريخ الفلسفة،فالقهر يعني أن نفتح آذاننا، ان نجعل أنفسنا منفتحين لما يحدثنا به التراث من حيث هو وجود الموجود (هيدغر. ب ت:66)، و قد يستخدم لفظ المجاوزة دون أن يعني ذلك أننا ننظر إلى تاريخ الميتافيزيقا على أنه تاريخ أخطاء ارتكبها أبطال و شخوص هذا التاريخ."

ب)- تجاوز الميتافيزيقا:

يرى هيدغر أن تجاوز الميتافيزيقا لا يعني إطلاقا إلغاء أو إبعاد الميتافيزيقا من حقل المعرفة الفلسفية، Heidegger(m), 1958: 81. فالتجاوزهو عبارة عن حوار Dialogue يهدف إلى تملك الميتافيزيقا من خلال عصورها، و هذا الحوار لا يكون إلا استذكارا بغية الوقوف على ما قامت عليه الميتافيزيقا بوصفها فكرا نسي الوجود.Heidegger(m),1958: 90

إن قهر الميتافيزيقا يفهم عند هيدغر بمعنى الرجوع إلى الأرض التي تضرب فيها شجرة الفلسفة بجذورها بغية تقليبها وحرثها وليس بغية إقتلاع جذور الشجرة، فالميتافيزيقا تبقى مبدأ الفلسفة الأول، " بيد أن قهر الميتافيزيقا هذا لا يقوض الميتافيزيقا

ولا يهدمها، فطالما كان الإنسان حيوانا ناطقا، كان أيضاً حيوانا ميتافيزيقيا،[...] لكن تفكيرنا إن استطاع أن ينجح في جهوده التي تستهدف العودة إلى أساس الميتافيزيقا، فلا بد وأن يساعد في إحداث تغيير في ماهية الإنسان مصحوبا بتحول في الميتافيزيقا مماثل." (هيدغر.م،ب ت:80.)

يستعرض هيدغر تاريخ الميتافيزيقا من خلال ثلاث لحظات أساسية هي: اللحظة الأفلاطونية –نسبة إلى أفلاطون- واللحظة الديكارتية، واللحظة الهيغيلية، وكل لحظة منها تنقسم إلى لحظات صغرى، غير أن هذه اللحظات لم تكن منفصلة عن بعضها، بل مترابطة تجمعها أرض واحدة وينتظمها خيط رابط واحد لكونها تستند إلى إشكالية واحدة وأفق واحد. (يفوت، س. 1999 : 8)

تمثل اللحظة الأفلاطونية لا تعني اللحظة هنا الرجوع إلى مرحلة تاريخية معينة نقوم من خلالها بعرض مواقف وأفكار أفلاطون عرضا نفحص فيه ما كتبه، بل باعتباره أساس تحول فيها الفكر إلى فلسفة أو إلى ميتافيزيقا سيدوم مفعولها وقتا طويلا، هي لحظة لأنها تشكل ينبوع بداية الفلسفة]. ((غدامار، (ه،ج)،ب ت:3)) البداية الفعلية لكل ميتافيزيقا، إذ ستشكل هذه اللحظة تحولا عميقا في مفاهيم كثيرة أدت إلى تحول في ماهية الحقيقة وماهية الإنسان والفكر واللغة، ستتحدد ماهية الإنسان في الحيوانية و النطق، وماهية الحقيقة في القول الذي ينبغي أن يبتعد عن التناقض المنطقي ويقوم على مفهوم التطابق والتوافق، أما اللغة فستصبح مجرد أداة للتواصل والتبليغ، وبهذا التحول ستتشكل مغامرة و تجربة جديدة تكون بدايتها مع أفلاطون لتصل إلى تمامها مع نيتشه الذي يعتبره هيدغر آخر الميتافيزيقيين، يقول هيدغر في محاضرته (ماهية الحقيقة):" ما هو الموجود بما هو موجود في كليته؟ [...] إن التفكير في الموجود الذي ينشأ عنه هذا التساؤل أصلا، هو الذي عُرف منذ عهد أفلاطون (بالفلسفة) ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم الميتافيزيقا"(هيدغر، م.ب ت: 293- 294.)، ويقول أيضاً: "ولكن (الفلسفة) التي بدأت مع أفلاطون قد احتفظت من بعده بطابع ذلك الذي سمي في وقت متأخر (الميتافيزيقا) .و أفلاطون نفسه يقدم لنا الصورة الأساسية للميتافيزيقا في الحكاية التي يحكيها رمز الكهف. بل إن كلمة (الميتافيزيقا) نفسها قد سبق إلى أفلاطون إلى صياغتها صياغة أولية في رمز الكهف[...] ومنذ أن فسر الوجود بأنه (ايديا)،(مثال) أصبح التفكير في وجود الموجود تفكيرا ميتافيزيقيا، كما أصبحت الميتافيزيقا لاهوتية، واللاهوت معناه هنا تفسير علة الموجود بأنه هو (الإله) ونقل الوجود إلى هذه العلة".(هيدغر، م.ب ت: 354- 355.) غير أنه لا ينبغي التوقف عند هذا المعنى الأفلاطوني، أي المعنى الذي فهمه أفلاطون لوجود الموجود [الوجود] عندما أخضعه للمثال

[الايديا]، والسبب في ذلك أن هذا المعنى الأفلاطوني يظل متعلقاً بالنظر والإدراك والفكر. وهذا معناه في نظر هيدغر التخلي عن ماهية الوجود والسؤال عن معناه. ومن أجل ذلك يقرر هيدغر أن كل محاولة لوضع ماهية الوجود في العقل أو الفكر أو اللوغوس، أو تأسيسها على أي نوع آخر من أنواع الذاتية هي محاولة لن تفلح في إنقاذ ماهية الوجود .(عبده كساب، ع. 2004: 248)

أما في العصور الوسطى، فإن وجهة النظر المدرسية، في نظر هيدغر، لم تضف جديدا، بل لقد وجهت البحث في سبل خاطئة بحيث غمر النسيان مشكلة الوجود. فلقد اقترن عجز الفلاسفة المدرسيين عن التمييز Distinction بين الوجود والأشياء الموجودة. (عبده كساب، ع. 2004: 236)

أما بالنسبة للحظة الثانية، لحظة بداية نهاية الميتافيزيقا فتتمثلها النزعة الذاتية كما نجدها عند ديكارت وكانط، إذ يعد ديكارت بالنسبة لهيدغر النموذج الأول و رائد هذه اللحظة، فمع هذا الفيلسوف تكتمل الغربية لتصبح ميتافيزيقا الذاتية، ويصبح الأنا منذ ديكارت الموضوع المتميز والمفضل للميتافيزيقا، وستصبح الحقيقة تتحدد كموضوع للتمثل،وكيقين للتمثل.(يفوت، س. 1999:10)

وكل ما قامت به الفلسفة الحديثة ابتداء من ديكارت وحتى هيغل أخر المعاقل التي تتمثل وتحول الكائن الاسمي إلى ذات تدرك نفسها وتعيد تمثلها في المعرفة المطلقة، وفي مرحلة متقدمة ستحول الحضور والمثول معا إلى موضوع يوضع أمام الذات، بحيث يخضع في النهاية لما يسميه هو " سيطرتها التقنية".(مهيبل، ع. 2004: 13.)

و سيكون لسيادة النزعة الذاتية أن يرد الوجود إلى الموجود، إل موضوع يحضر أمام الذات، هذه اللحظة أهم ما يميزها أيضا سيادة الروح العلمية، حيث تتجلى هذه الروح في الموضوعية التي تجعل الموجود شيئاً يمكن تحديده تحديداً دقيقاً وتجريبياً، ثم رده مرة أخرى إلى نوع من التمثل تحقق في ميتافيزيقا ديكارت. إنها ميتافيزيقا الذاتية. ولم يعد الإنسان مخلوق يتلقى اليقين من اللّه، بل أصبح ذاتاً تهب الحقيقة لكل شيء. والفلاسفة الذين جاءوا بعد ديكارت هم ديكارتيون يدورون في فلك النزعة الذاتية.(عبده كساب، ع. 2004: 236.)

لقد أصبحت الحقيقة مع ديكارت تستقر في الذات بوصفها تقوم على نفس تفكر تستند على أساس يقين هو (الأنا المفكر) أو (الذات المفكرة) التي تمتلك ما يؤهلها على أن تفكر و تدرك أنها تفكر.

يقول ديكارت:"نحن الذين اقتنعنا بأنه ليس هناك خارج فكرنا شيء حقيقي أو موجود [...] أننا موجودون باعتبار تفكيرنا وحده."(سبيلا، م؛ بنعبد العالي،ع. 1991: 50)

والفلاسفة الذين جاءوا بعد ديكارت هم ديكارتيون يدورون في فلك النزعة الذاتية، وميتافيزيقا كانط ليست إلا فلسفة ترنسندانتالية، فلسفة تبحث في الشروط التي تجعل من الموجودات موضوعات للذات،لقد قدم هيدغر عدة دراسات عن كانط مثل: "كانط ومشكلة الميتافيزيقا"، " السؤال عن الشيء "مقولة كانط عن الشيء" وحلقة بحث عن كتاب كانط "الدليل الوحيد الممكن على وجود الله"، ويمكن أن نرى بينهما بعض التشابه؛ وهو أن فلسفة كانط تدور حول إشكالية رئيسية ينشغل بها هو أيضا وهى إشكالية الوجود المتعين، وهى تشير إلى المكان الذي يتطور فيه الموجود ويمكن أن نصل إليه.(أحمد عبد الحليم، ع. 2005: 18)

وإذا كان كانط قد اهتم بميتافيزيقا الموضوع، أي رد الموجود إلى موضوع، فإن الموضوع في النهاية، يعد موضوعا للذات " لقد عملت هذه الفلسفة على فحص ملكة المعرفة والتساؤل عما يستطيع الإنسان معرفته، ومن ثم يصير من الحتمي البحث عن وجود الموجود في ما هو متمثل، واتحد البحث الفلسفي الحديث من الذات موضوعا لاهتمامه وانشغاله بوصفها تحتوي على إمكانيات أنطولوجية تساعد على تأسيس الحقيقة. و بهذا الانشغال ترسخ الاعتقاد بأن حقيقة جميع الظواهر لا يمكن أن تقوم إلا داخل العقل أو العلم."(يفوت، س. 1999: 11)

إن ميتافيزيقا الذاتية ستصل إلى أوجها مع ميتافيزيقا الذاتية المطلقة القائلة بفكر مطلق، فمع هيغل تبدأ نهاية الميتافيزيقا، إنها ميتافيزيقا إرادة الروح المطلق، الوجود عند هيغل هو الروح المطلق أو الفكرة المطلقة .

مع نيتشه تصل الميتافيزيقيا الغربية إلى نهايتها، فنيتشه بالنسبة لهيدغر يعد آخر الميتافيزيقيين، ولكنه يتميز عنهم في كونه أدرك (العدمية Nihilisme)، وعمل على نقد الأسس الميتافيزيقية التي تقوم عليها، وهيدغر يرى أن هذا الإدراك ظل ميتافيزيقا باعتباره رؤية إلى حقيقة الموجود بما هو كذلك .(محمود، ر.ب ت: 95) .

لقد ظلت الميتافيزيقا عند هؤلاء الفلاسفة جميعا أفلاطون وديكارت و كانط وهيغل ونيتشه بحث في الموجود بما هو كذلك، وتم نسيان الوجود، أي نسيان للفرق الأنطولوجي، فلا يمكن أن يتم تجاوز الميتافيزيقا إلا إذا استطاع الفكر أن يعلو على الذاتية، وأن يتساءل عن ماهية الميتافيزيقا وأن يبحث في الشيء الذي تم نسيانه طوال تاريخ الميتافيزيقا، ألا وهو مفهوم الوجود.

الخاتمة:

يتبين مما سبق، أن المسألة الجوهرية التي حاول هيدغر أن يوجه إليها البحث هي محاولة تجاوز الميتافيزيقا أي تأسيسها، إن تجاوز الميتافيزيقا بإعتبارها بحث في الموجود

بما هو موجود، كما عبرت عنه الأنطولوجيا التقليدية يعد تأسيس للميتافيزيقا بوصفها بحث في الوجود بما هو حقيقة تشكل ماهية الإنسان، فقهر الميتافيزيقا كما تصوره هيدغر لا يعني إطلاقا الهدم، بل على العكس من ذلك يدل هذا الفعل على ضرورة إعادة التأسيس من جديد، فهو بالتالي تفكير مؤسس.

المراجع:

- بنعبد العالي عبد السلام و سبيلا محمد، 1991،التفكير الفلسفي- نصوص مختارة- دار توبقال للنشر.
- حرب علي، 2000، نقد الحقيقة، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي.
- رجب محمود، ب ت، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، منشأة المعارف.
- عبده كساب عبد القدوس، 2004،الوجود والمقدس في ميتافيزيقا هيدغر، مجلة أوراق فلسفية، العدد التاسع، ص ص: 225.240.
- طواع محمد، 1998، هيدغر والشعر، مجلة فكر ونقد، سبيريس الدار البيضاء، العدد الثامن، ص ص: 76.84.
- المسكيني فتحي، 2005، نقد العقل التأويلي، أو فلسفة الإله الأخير، الطبعة الأولى، مركز الإنماء القومي.
- مهيبل عمر، 2004، من الكينونة إلى الزمان، مجلة أوراق فلسفية، العدد السابع، ص ص:10.18.
- هيدغر مارتن، ب ت، ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلن وماهية الشعر، تر: فؤاد كامل ومحمود رجب، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- هيدغر مارتن، 1977، نداء الحقيقة، ترجمة وتقديم ودراسة: عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.
- هيدغر مارتن، 1999، رسالة في النزعة الإنسانية، ترجمة، مفتاح عبد الهادي، مجلة فكر ونقد، سبيريس الدار البيضاء، العدد 11، ص ص: 130.139.
- يفوت سالم، 1999، المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، الطبعة الأولى، دار الطليعة بيروت.

-Beaufret(Jean), 1971, *Introduction aux philosophies de l'existence*, Denoel/Gonthier.
-Heidegger (martin),1958, *Essais et conférences* , Gallimard.
-Heidegger (martin), 1985, *Qu'est-ce que la métaphysique* ? trad.:Henry Corbin, ed Nathan.
- Henri Birault, 2001, *Heidegger et l'expérience de la pensée*, nrf éditions Gallimard.
-Lefranc(Jean),1998, *La Métaphysique*, Armand Colin, Paris.